

العنوان:	احتلال مدينتي وجدة والدار البيضاء سنة 1907: دراسة مقارنة
المصدر:	أعمال الحلقة الدراسية: الدار البيضاء في مائة سنة 1907 - 2007
الناشر:	كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك - مختبر الدراسات والأبحاث حول الشاوية المجال والإنسان
المؤلف الرئيسي:	دادي، دارية
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2010
مكان انعقاد المؤتمر:	الدار البيضاء
الهيئة المسؤولة:	جامعة الحسن الثاني المحمدية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك - مختبر الدراسات والأبحاث حول الشاوية المجال والإنسان
الصفحات:	15 - 35
رقم MD:	906070
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	HumanIndex

احتلال مدينتي وجدة والدار البيضاء سنة 1907 دراسة مقارنة

مارية دادي(*)

مقدمة

لقد ازدادت الضغوط الأجنبية على المغرب مع مطلع القرن العشرين، وأصبح الفرنسيون نتيجة لتهافتهم وضغوطهم على المغرب، هدفا لردود فعل شعبية وازدادت علاقات المغاربة بالفرنسيين سوءا بعد إعلان ميثاق الجزيرة مباشرة، ذلك الميثاق الذي دعا المغرب للتعاون مع فرنسا وإسبانيا أي مع الدول الطامعة فيه، لقد رفض المغاربة نتائج المؤتمر وانتشرت الدعوات للجهاد للدفاع عن البلاد ضد الطامعين وأصبحت الوضعية تنذر بأخطار لا يمكن التكهن بعواقبها، وخاصة بالحوز والسواحل الغربية والحدود الشرقية.

ولقد أصبحت تصرفات الفرنسيين بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء ـ الذي اعترف لهم بالمصلحة الخاصة بالمغرب، ومنحهم تنظيم البوليس بالموانئ

* . كلية الآداب ـ وجدة.

المغربية بتعاون مع المخزن والإسبان - تتميز بكثير من التهور والاستخفاف بالعواطف الوطنية للمغاربة. وقد نتج عن سياسة التدخل النشيط حوادث دموية اتخذتها الأوساط الاستعمارية ذريعة لفرض شروطها على المخزن. وأسبابا كافية لتدشين مسلسل احتلال المدن المغربية. فدخلت الجيوش الفرنسية مدينة وجدة في نهاية شهر مارس 1907. وأردفت ذلك باحتلال البيضاء في بداية شهر غشت من نفس السنة.

فإذا كان الاحتلال واحد. فإن أسبابه وطرقه متعددة. فكيف تم احتلال وجدة وكيف تم احتلال الدار البيضاء. ثم ما هي أوجه التشابه والاختلاف بين احتلال كل من المدينتين؟

احتلال وجدة

إن جل المصادر والتقارير المغربية والأجنبية تتحدث عن الحالة المزرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي عانت منها وجدة وكذا التهميش الذي طالها قبل الاحتلال الفرنسي لها. بل طيلة القرن 19م حيث عانت الويلات خاصة بعد دخول الفرنسيين إلى الجزائر سنة 1830م. وسياسة التحرش التي نهجتها السلطات الفرنسية تجاهها. حيث داستها خيولهم سنة 1844م ثم سنة 1859م وغيرها. وبعد ذلك بقيت هملا لنفسها ومرتعا لهجمات القبائل المجاورة لها. وفي سنة 1903 احتلها بوحمارة وهربت منها الحكومة الشريفة. حتى إذا جاءت الحملة الفرنسية صبيحة يوم الجمعة 29 مارس 1907م ظنت مدينة وجدة أنه سيكون لها فيها خلاصها. فتنفست الصعداء. وفتحت لها ذراعيها وارتمت في أحضانها.

في يوم الجمعة 29 مارس 1907م كتب عامل مدينة وجدة أحمد بن كروم الجبوري رسالة إلى أخيه قاسم بن كروم جاء فيها: "فاعلم أخي أن صبيحة يوم تاريخه الجمعة. اندفقت الجنود الفرنساوية علينا بقدر لا حد له: نحو خمسون مائة من العسكر. وعشرون مائة من الخيل بآلة الحرب والمدافع. ودخلوا وجدة. وحيث كلمناهم ذكروا بأن لهم على المخزن دعوة في شأن افرنساوي قتل بمركوشة. وهم الآن تمكنوا من المدينة وضاقت بنا الأرجاء... ولا ناصر إلا الله».

كما نجد المختار السوسي يذكر على لسان القائد لخصاصي - بعد أن تحدث عن دخول الحملة الفرنسية إلى وجدة - قوله: "وقد خرج أهل وجدة مرحبين بالحملة الفرنسية كأنهم لا يعرفون أنها فاتحة احتلال عام لكل البلاد"[1].

فما هي إذن الأسباب القريبة التي مهدت لاحتلال وجدة.

لقد عملت فرنسا انطلاقا من الجزائر على خلق عدد من الأسباب الموضوعة التي بررت بها تدفق عساكرها على مدينة وجدة في صبيحة يوم الجمعة 29 مارس 1907م.

فمن أبرز تلك الأسباب إذكاء النزاعات بين القبائل الشرقية وإثارة الاضطرابات الداخلية، وتشجيع الحركات المناوئة للمخزن بهدف خلق حالة من السيبة على طول الحدود الشرقية، ومن ذلك على سبيل المثال حركة الجيلالي الزرهوني المدعو بوحمارة وما ترتب عنها من انعكاسات خطيرة على المغرب عموما وعلى المناطق الشرقية خصوصا وذلك بسبب الفتن التي أثارتها طيلة خمس سنوات، مما أدى إلى عزل وجدة عن باقي البلاد وتخريبها وإنهاك قواها.

ويلخص بلحسن الحجوي في كتابه "الرحلة الوجدية" جيدا الوضعية حيث يقول "إن حالة العسكر تعسة... وفي بعض الأيام لما كلفت بالتفتيش في

---

1. كانت القبائل الواقعة في شرق الجزائر المحتلة تهاجر جماعات وفرادى إلى داخل المغرب بالأخص إلى منطقة وجدة، الأمر الذي دفع بالضباط الفرنسيين إلى تجهيز حملة في اتجاه المناطق المذكورة في صيف 1859م، أي بعد انتهاء الحرب في إيطاليا. وفي هذا الإطار لم يتو ان الجنرال DeMartimprey في اعداد العدة وحشد القوات التي عسكرت بالضفة اليمنى لوادي كيس في 8 اكتوبر 1859م، ورغم أن داء الكوليرا تفشى في صفوف الجيش وقتل منه حوالي 4 آلف قبل وصوله إلى جبال بني يزناسن، قد تابعت الجيوش طريقها إلى وجدة ودخلتها في 8 نونبر. وبعد رجوع الفيلق إلى تلمسان حاملا عددا من المرضى كان قد فقد في المجموع 6 آلاف جندي، انظر بقية التفاصيل في تقرير (Paul Bulyse)، ص : 275.

المحلة، وجدت عددا من المرضى في حالة وسخة وبيلة، والجوع يأكل أمعاءهم ولا دواء، ولا خيل لهم وإنما هم ملقون على قارعة الطريق... جائعة بطونهم عارية أجسامهم، وحالتهم تبكي من لا يعرف البكاء، ويراهم الأجانب الذين ينتابون وجدة على أسوء حال.."[2].

أما من الناحية الاقتصادية فقد عملت فرنسا على فرض تبعية تجارية ونقدية شبه تامة على المنطقة الشرقية، أدت إلى إضعافها وإنهاك قواها كمرحلة أولى، ثم في مرحلة ثانية وابتداء من غشت سنة 1906 قررت الأوساط الاستعمارية ضرب حصار عسكري واقتصادي شديد على وجدة وناحيتها، قصد إيقاف جميع المبادلات التجارية بين المدينة والغرب الجزائري، وذلك بهدف تجويع السكان وإرغامهم على الرضوخ لمطامعها. ومما زاد الوضع تأزما الجفاف الذي عرفه المغرب الشرقي لمدة ثلاث سنوات متتالية وذلك خلال سنوات 1903، 1904، 1905 مما أثر على أهم مصدر اقتصادي محلي المتمثل في تربية الماشية.

وبالإضافة إلى ذلك فقد حدث ارتفاع مهول في الأسعار نتيجة قلة البضائع من جهة والقضاء على العملة المحلية، أي الريال الذي حل محله الفرنك الفرنسي في المبادلات التجارية بوجدة من جهة ثانية، ويصف الحجوي انهيار العملة قائلا: "..... صار الريال يساوي ثلاثة أرباع الريال فضة، وما انتهى شهر حتى صار الريال بنصف ريال.... ثم صار لا يساوي شيئا...."[3].

إن كل هذه العوامل وغيرها أدت إلى تضرر وتفقير الجماهير الشعبية بالمنطقة.

وهكذا لم يبق لفرنسا إلا البحث عن ذريعة لاحتلال وجدة، فوجدتها في مقتل الطبيب الجاسوس موشان بمراكش، فاستغلت فرنسا هذا المقتل لإثارة الرأي العام الأوروبي ضد المغرب لتبرير سيطرتها على جزء من ترابه كانت تتطلع إلى احتلاله منذ مدة طويلة.

---

2. المنوني، المصادر التاريخية للمغرب الشرقي في القرن 19م، ندوة مدينة وجدة بين الماضي والحاضر، ص. 404.

3. محمد المختار السوسي، المعسول، 20/49.

دخول الحملة الفرنسية إلى وجدة

إن الأمر باحتلال وجدة وصل يوم الاثنين إلى الجزائر العاصمة فأبرقت القيادة العليا إلى الجنرال ليوطي بوهران، الذي هيأ للحملة في 48 ساعة وجمع ثلاثة آلاف رجل، وهو العدد الذي قررت الحكومة الفرنسية أن تستخدمه في الحملة. ويوم الأربعاء مساء أعطى الجنرال ليوطي أوامره بالتعبئة والتحرك، فخرج الجيش الفرنسي من تلمسان في اتجاه مدينة وجدة[4].

دخل الجيش الفرنسي إلى وجدة صباح يوم الجمعة 29 مارس 1907 حوالي الساعة العاشرة صباحا عبر باب سيدي عبد الوهاب متجها رأسا إلى القصبة حيث مقرالسلطة المغربية، وأول عمل قام به هو نصب العلم الفرنسي فوق صومعة المسجد الأعظم الذي هو أعلى بناء في المدينة[5]، والذي تزعم رفعه هو بن سالم فاصلة من أصل جزائري[6] ثم توجه الجنرال ليوطي مع أفراد قيادته العليا إلى داخل القصبة حيث أقام بجناح غير مأهول في منزل العامل (أحمد بن كروم)[7] الذي أبدى استلطافا في معاملة قواد الحملة وقدم لهم وجبة غداء.

من خلال تقرير لأحد الصحفيين رافق الحملة، يصف جلسته أثناء وجبة الغداء في منزل عامل وجدة حيث حضرها صاحب التقرير باعتباره صحفي مرافق للحملة، وقائد المشاة الاستعمارية، وعدد من الموظفين السامين، وعدد من الصحفيين، وسيدة، هذه الوجبة التي كانت تضم عددا من الأطباق

4. الحجوي، الرحلة الوجدية، مخ بقسم الوثائق، الخزانة العامة بالرباط، رقم 123ح، ص: 55 وما بعدها.

5. الحجوي، مس، ص: 59.

6. هذه الحملة التي اشترك فيها قواد للمشاة والموظفين والصحفيين وضباط الفرسان وسيدة والخيالة بالمعاطف الزرقاء والزواويين (Les Zouaves) والقواة المساعدة الجزائرية المرابطة في وهران (Les Sphahis)، وكذا رافقتها القوات التي كان ترابط في بركنت 1 "Les goumer". وكان الجنود يحملون سلاحا جيدا للحرب، أما المدافع فكانت محمولة فوق العربات.

7. وهي الصومعة الوحيدة التي كانت في وجدة في تلك الفترة، أما اليوم فيوجد أكثر من 175 صومعة في المدينة.

الشهية وخروفا مشويا. وكانت جلسة هادئة حيث لا يصلهم أدنى ضوضاء من الخارج من جهة المنازل المجاورة، وكانت السماء مشمسة و الورود مفتحة، لدرجة أنه تعجب من ذلك بقوله: "لا يمكن أن نصدق أننا في المغرب وسط حملة عسكرية".

لقد تم في اليوم الأول لدخول الحملة إلى مدينة وجدة إقامة استعراض عسكري مهم داخل المدينة وسط مراسيم احتفالية قبل أن تنسحب الجيوش لترابط وراء الأسوار.

ثم أطلق سراح جميع المعتقلين السياسيين الذين وجدهم الفرنسيون في الزنازن، وقاموا بإدخال تنظيمات قاسية وصارمة كانت تتطلبها الحالة في مدينة وجدة التي عانت من تتابع الغارات عليها[8]. وبعد إعادة الهدوء إلى المدينة أصبح السكان مسالمين مما جعل أحد المرافقين للحملة يشيد بنجاح العلمية بقوله: ولهذا فإن احتلال وجدة لا يشكل في ذاته عملية عسكرية جديرة بالإشادة والثناء".

فما هو رد فعل سكان مدينة وجدة على الحملة الفرنسية.

إن المتتبع لعملية دخول الحملة الفرنسية إلى مدينة وجدة ربما يستغرب عندما يجدها كلها تؤكد على أن الدخول تم بسهولة ودون أن يتصدى له أي أحد، بل تم دون شوشرة أو اعتراض لا من السكان[9]، ولا من ممثلي المخزن بها وذلك لأن الجنرال ليوطي قد أخذ بكل الأسباب الموضوعية لإنجاح هذه العملية التي لم تكن على حد قولهم أكثر من نزهة عسكرية.

ونجد تأكيدا من خلال قصيدة الزجال هاشم بن بوبكر السعداني الوجدي الإقامة[10]، والذي يعتبر شاهد عيان لدخول الفرنسيين إلى وجدة، وقد ارخ

---

8. بن سالم فاضلة الذي تزعم رفع العلم الفرنسي فوق الجامع الأعظم يوم الجمعة أول يوم من الاحتلال الفرنسي لوجدة، وهو من أصل جزائري وأول من فتح بمدينة وجدة مطحنة عصرية تستعمل جهازا بالبترول.

9. أحمد بن كروم البحاري، تقلد منصب عامل إقليم وجدة من 1902 إلى 1922م.

10. Bluysen Paul, Ibid, p 282

هذه الحادثة بواسطة قصيدة زجلية بعنوان" دخول وجدا وهي قصيدة مطولة تتألف من 22 قسما، ولازمتها كما يلي:

يالاسلام باكيوا على دخول وجدا   دون غنمها لعدو ا نوال المراد
راب لصوار وندخل رصام العز   وكسى ثوب الهوان فيها كل اعزيز

لماذا لم يقف الوجديون في وجه الحملة الفرنسية؟

لقد ثبت من خلال شهود عيان أجانب كانوا أم مغاربة أن سكان مدينة وجدة لم يقفوا في وجه الحملة الفرنسية، ولكن هؤلاء السكان كانت لهم ظروفهم، فقد كان الترحيب بالحملة الفرنسية خاصة من الفئات الشعبية التي سئمت مسلسل الفتن التي تواترت على المنطقة الشرقية عامة ومدينة وجدة خاصة، فقد راودها شعور بالارتياح لأنها لم يكن لها الوعي الكافي لإدراك أبعاد ما يقع، إضافة إلى أنها كانت تأمل في أن ترى أفضل بعد أن ضاقت في وجهها سبل العيش، ناهيك عن ضآلة قيمة العملة الوطنية كما ذكرنا سابقا إضافة إلى الفئة الشعبية المذكورة كانت هناك فئة التجار التي جنت أرباحا طائلة من معاملتها مع الحاميات العسكرية ومن ارتباطها بالأسواق الجزائرية المجاورة، فضلا عن أملها في أن تحل لها الإدارة الجديدة بعض المشاكل المالية التي كانت معلقة[11]. هذا إضافة إلى عدد من الأسباب الخاصة بمدينة وجدة والتي نلخصها في مايلي:

1. ضعف جيش المخزن: وقد تحدثنا عنه سابقا.

2. تواطؤ بعض رجال المخزن مع فرنسا: قال القائد الأخصاصي حول هذا الموضوع: "ثم جاءنا الأمر بأن نقلع من وجدة إلى الريف يوم انقطع بوحمارة إلى الريف، ولم ندر سبب هذا الأمر إلا بعد حين، فخرجنا متوجهين لما أمرنا به.... وبعد ثلاثة أيام احتلت فرنسا مدينة وجدة، فعرفنا أن هذا هو السبب.... فعلمنا حينئذ أن من يلون شؤون الحكومة يريدون أن يخلو الجو للثائر

---

11. Bluysen Paul, L'occupation d'Oujda, p 273

لينتصر ويعلو شأنه تنفيذا للمخططات الفرنسية التي تعين الثائر، وتسخره لفائدتها"[12].

3. عيوب في التسيير المالي المخزني وارتكاب بعض الأخطاء في التسيير وإناطة المسؤولية المالية لأشخاص تنقصهم الأمانة والحس الوطني. وفي ذلك يذكر الضابط موجان في تقريره عن الناحية المالية بوجدة: " لن نتحدث هنا عن كل سرقات الأموال التي يمكن أن تحدث ولا عن كل الخروقات التي ترتكب، ويكفي ان نقول أننا عرفنا أمينا توفر على حساب جاري، به مبالغ نائلة في أحد أبناكنا، وذلك عند مغادرته"[13].

4. ضعف الحامية المخزنية المرابطة بمدينة وجدة: لقد علمنا من خلال التقارير التي وصفت دخول وجدة أن عدد الجنود في الحملة العسكرية الفرنسية قد بلغ 3.000 رجل ناهيك عن الخيالة وكوم بركنت. أما فيما يخص حامية وجدة فقد ذكر الضابط موجان في التقرير الذي كتبه عن وجدة سنة 1906 وهو شاهد عيان كذلك أن : ثلاث أرباع جيش وجدة قد فر، والعدد الحالي على أكثر تقدير لا يتعدى 300 رجل"[14]. معناه أن جيش الحملة الفرنسية

---

12. هاشم بن بوبكر السعداني، فاسي الأصل وجدي الإقامة، كان نموذجا لشعراء الملحون الذين استجابوا للنداء الوطني، فارسلوابنادق كلماتهم صوب رؤوس جماعة من الخونة الموالين للاستعمار، فنظموا عددا من القصائد الزجلية لاستنهاض همة المواطنين المخلصين. وقصيدة هاشم السعداني "ادخول وجدا" هي قصيدة زجلية تؤرخ لاحتلال مدينة وجدة وتعتبر مرجعا هاما للباحث في فترة احتلالها وهي رائعة وطويلة، بلغ أبياتها ما يقرب من مائتي بيت في 22 قسما على وزن "المبيت، فرغ من نظمها في رمضان 1325/1907. حيث نشرت بالمطبعة الحجرية الفاسية في 12 صفحة من الحجم المتوسط. بحوزتنا نسخة منها.

13. منذ سنة 1905 وعدت الإدارة المخزنية فئة التجار بوجدة أن تحل لها بعض المشاكل المالية المعلقة، ومن جملتها أن تعوض لها خمسين ألف من النقود النحاسية التي بخس ثمنها والتي أودعتها عند أمين الجمارك بالمدينة، بالنقود الفضية، على أساس 5 فرنك نحاسية مقابل 4 فرنك فضية، ورغم أن هذه المشكلة لم تكن خاصة بشرق المغرب، فإن الإدارة الفرنسية سوتها خلال سنة 1907م.

14. نفسه، 20/52.

الذي دخل وجدة يساوي على الأقل عشر مرات جيش المخزن المرابط إذا أخذنا بصحة كلام التقارير الفرنسية، أما إذا رجعنا إلى مصادرنا الوطنية والتي كان أصحابها شاهدي عيان كذلك، فإننا نجد أن عدد جيش الحملة هو 5.000 جندي إضافة إلى 2.000 من الخيالة، وهو ما مجموعه 7.000 عسكري هاجمت كلها مدينة وجدة معناه أن عدد جنود الحملة الفرنسية التي دخلت وجدة أكثر من عدد سكان المدينة، وبذلك فلا مجال لكي نلوم سكان مدينة وجدة على عدم وقوفهم في وجه الحملة الفرنسية.

5. إضافة إلى ذلك عدم اهتمام الحكام بمدينة وجدة لا قبل دخول الحملة إليها ولا بعد دخولها، نستشف ذلك من خلال رسالة المولى عبد الحفيظ التي كتبها بعدما ثار على أخيه المولى عبد العزيز - على القائد المدني لخصاصي يطلب منه فيها مبايعته، حيث قال فيها : "وطالما رأينا وسمعنا، ولا زاجر ولا واعظ ولا من يتعظ. أخذت وجدة، فاتخذنا أمرها هزءا ولعبا وتهكما وسخرية، ولم ينجد أهلها لا ناصرا ولا معينا"[15].

وبهذا تتبين لنا أسباب أخرى من الأسباب الموضوعية التي جعلت سكان مدينة وجدة يرحبون بالحملة الفرنسية ولا يبدون أي مقاومة ما داموا لا قبل لهم بها، و ما دام حكام المغرب "اتخذوا أمرها هزءا ومادام أهلها لم يجدوا لا ناصرا ولا معينا".

لقد تمت عملية الدخول إلى مدينة وجدة بصفة سلمية ودون أدنى شوشرة وفي كامل الهدوء، لدرجة أن أحد المرافقين للحملة قال : "لا يمكن أن نصدق أننا في المغرب وسط حملة عسكرية".

فإذا كانت عملية احتلال وجدة تمت كما قال عنها أحد مرافقي الحملة "كنزهة عسكرية" ولم تثر أدنى اعتراض من طرف سكانها - على الأقل في الأيام الأولى من الاحتلال -، فإن صدى ذلك الاحتلال قد أثار ردود فعل شعبية كبيرة في عدد من المناطق المغربية بدءا بقبائل حوز مراكش وخاصة نواحي

---

15. Mougin, Oujda, p. 224

الصويرة، وصولا إلى قبائل الشاوية التي تحركت هي الأخرى ضد الأجانب بالدار البيضاء خاصة الفرنسيين منهم، وكان ذلك بمثابة النقطة التي أفاضت الكأس، وهيأت الظروف المناسبة لاحتلال الدار البيضاء.

احتلال الدار البيضاء[16]

مدخل

بعد احتلال وجدة بدأت الأطماع الفرنسية تتجه مباشرة إلى الموانئ الأطلسية وخاصة إلى الدار البيضاء والصويرة وطنجة والرباط، كما أن احتلال وجدة أثار ردود فعل شعبية، في الحوز وكذا بين قبائل الشاوية، خاصة وأن هذه القبائل كانت تعيش حالة من التحفز منذ سنة 1906 وقد ازدادت هذه الحالة سنة 1907 بازدياد الضغوط الفرنسية واتضاح الأطماع الاستعمارية للنشاط الفرنسي في المغرب. وبدأت قبائل الشاوية تهدد من جديد الأجانب بالدار البيضاء سنة 1907، وخاصة منهم الفرنسيين منذ احتلال وجدة. ولما شرعوا في الأعمال التمهيدية لبناء رصيف ميناء الدار البيضاء منذ مارس 1907، عندئذ تبين للشاوية أن الخطر الذي أصاب وجدة يمكن أن يتكرر بالدار البيضاء، ولذلك ازدادت النفوس قلقا وبدأ السكان يهددون بطرد الفرنسيين من المدينة وإيقاف تسربهم للمنطقة. لكن تهديدات الشاوية لم تحمل الفرنسيين على التقليل من تسربهم أو التخلي عن مشاريعهم الاستغلالية ذات الأهداف الأمبريالية، التي حاول سكان الشاوية إيقافها، ولما طغى ذلك التدخل بفرض مراقبين فرنسيين بمرسى مدينة الدار البيضاء كان لا بد من ردود فعل عملية الأمر الذي هيأ لحادث 30 يوليوز 1907 وحادثة قنبلة الدار البيضاء 5 ـ 7 غشت من نفس السنة.

الأسباب القريبة لاحتلال الدار البيضاء

لقد طالب المغاربة بمقاطعة التجار الأوربيين ومقاطعة التعامل مع الفرنسيين خاصة، وبما أن الفرنسيين كانوا هم المستهدفين، فقد اتجه غضب

---

16. Mougin Oujda, p. 224.

الجمهور ضدهم وانتهى الأمر بحادث شجار في أوراش الميناء بين المغاربة والفرنسيين عشية 30 يوليوز، ذهب ضحيته 9 عمال فرنسيين وغير فرنسيين (3 فرنسيين 3 إسبانيين 3 إيطاليين)[17]، كما ذهب ضحيته عمال مغاربة.

بعد هذا الحادث سيطر زعماء الانتفاضة على الوضع بالمدينة وقد طرد المراقب الفرنسي من الديوانة وطلب من الجالية الفرنسية مغادرة المدينة فالتجأت للسفن الراسية بالمرسى.

وعلى الرغم من وصول البارجة الحربية جاليلي يوم 1 غشت 1907 وعلى الرغم مما اتخذه قائدها من إجراءات عدائية فإن الهدوء ظل شاملا، والحياة العادية اتخذت مجراها الطبيعي.

في 4 غشت أصدر وزير الخارجية الفرنسية تعليمات لسفراء فرنسا، ليخبروا الحكومات الأجنبية، بأن الحكومة الفرنسية قررت إرسال قوة بحرية وقوات إنزال إلى الدار البيضاء قوامها 3000 رجل، وأنها طلبت من إسبانيا أن ترسل بدورها قوات إلى الدار البيضاء، وكان هدف تلك القوات "التي ستنزل ستحتل المدينة وضواحيها، وتعيد النظام والأمن، وتضمن حماية الرعايا الأجانب" وسينظم البوليس بالمدينة[18] وكان الفرنسيون يحسبون ألف حساب لمعارضة المخزن لأن ذلك سيفضح إدعاءهم التعاون مع السلطان لتنظيم البوليس، وكان أعضاء المخزن والسلطان يجتهدون في تجنب أي خلاف مع فرنسا قد يعرقل حل مسألة وجدة ويتجنبون حوادث قد تؤدي إلى مزيد من الابتزاز والاحتلال لأطراف البلاد.

---

17. حقيقة أنه بعد أربع سنوات من الإشراف على التسيير المالي بناحية وجدة تبين أن هناك ارتفاعا في المداخيل واستمر في الارتفاع سنة بعد أخرى، وإن كان هذا الارتفاع في المداخيل واكبته زيادة في المصاريف.

18. أورد نصها كاملا المنوني في مقاله عن المصادر التاريخية للمغرب الشرقي في القرن 19م، م ، س، ص. 404.

قنبلة الدار البيضاء 5 - 7 غشت 1907 واحتلالها

وصلت البارجة "جاليلي" يوم 1 غشت على الساعة الثامنة صباحا ومنذ وصول البارجة شرع قائدها في الاستعداد لتنفيذ ما اتفق عليه هو وسان اوليير من القيام بانتقام عنيف يعيد هيبة فرنسا في أعين المغاربة، والمهمة التي كلفت بها البارجة هي قنبلة المدينة بعد إنزال بحارة لحماية القنصلية الفرنسية، ولكن بما أن القوة التي كانت تتوفر عليها البارجة (80 من البحارة) لا تستطيع مواجهة المغاربة إذا حدث النزول عنوة، فلذلك أخروا النزول حتى تتكفل السلطات المغربية نفسها بإبعاد رجال القبائل عن باب المرسى الذي كانوا يحرسونه[19].

كانت البارجة الفرنسية على اتصال دائم بسفن حربية أخرى صدرت لها الأوامر بالالتحاق بالدار البيضاء حالا، وهذه البوارج هي دي شايلا Du chayla وفوربان Forbin كما كانت على اتصل دائم مع القنصلية الفرنسية بالدار البيضاء منذ أيام 2ـ 3ـ 4 غشت ولما اقترب وصول البوارج المذكورة من الدار البيضاء يوم 4 غشت، أدعى القنصل الفرنسي أن قائد كاليلي أخبره بأنه تلقى من دي شايلا برقية مفادها" أن أسطولا يحمل قوات هامة سيصل للدار البيضاء وستنزل هذه القوات صباح يوم 5 غشت وأنه طلب منه أن يتصل بمولاي الأمين لكي يكون باب المرسى مفتوحا"، وفعلا تم إخبار الخليفة السلطاني وأصدر تعليماته بأن يترك باب المرسى مفتوحا.

لقد أخذ الفرنسيون كل الاحتياطات اللازمة لنزول البحارة من البارجة "جاليلي" بأمان، وحاولوا التكتم الكامل بحيث إن القنصلين الألماني والبريطاني لم يعرفا حقيقة النزول إلا في وقت جد متأخر من ليلة 4ـ 5 غشت.

نزول بحارة «جاليلي» فجر يوم 5 غشت ونتائجه

في الساعة الخامسة من صباح يوم 5 غشت انفصلت عدة قوارب من البارجة كاليلي وتوجهت نحو باب المرسى الذي كان مفتوحا حيث أنزلت

19. المختار السوسي، إيليغ، 20/189.

حوالي 66 بحارا بمساعدة الذين صادفوهم في طريقهم وكان معظمهم من الجنود الذين كان مولاي الأمين قد وضعهم لحراسة الطريق الرابط بين باب المرسى والقنصليات الأجنبية، وقد شارك في ذلك أيضا الفرنسيون المدنيون الذين كانوا موجودين بالقنصلية الفرنسية وفتحوا نيران بنادقهم على الجنود المغاربة الذين كانوا يحتلون جوانب الطريق ليسهلوا على البحارة دخول القنصلية والحديقة.

لقد صاحب المذبحة التي ارتكبها البحارة الفرنسيون بالبر، قنبلة الأحياء التي يسكنها المغاربة من البحر، فالظاهر أن نية قنبلة المدينة كانت حاضرة منذ وصول البارجة الفرنسية لمرسى المدينة في 1 غشت، إلا أن عملية القنبلة لم تحدث إلا بعد أن تأكدوا من وصول سفن حربية كان من المنتظر أن تصل يوم 5 غشت أمام الدار البيضاء، وعلى إثر رفع علامة القنبلة المتفق عليها مسبقا غطت القنبلة المدينة كلها بالحديد والنار.

لقد صبت على سكان الدار البيضاء نيران المدافع في الوقت الذي كان فيه معظمهم لازال في فراش النوم وفي الوقت الذي كانت فيه مدافع جاليلي تدك حي التناكر الشعبي وفي الوقت الذي كانت فيه قذائف الميلينيت تتساقط في كل مكان. وصلت البارجة Du chaya وشرعت حالا في القصف معززة عمل البارجة الأولى.

وهكذا اسرع سكان المدينة الذين استيقظوا على نيران المدافع وانفجار القذائف للدفاع عن أنفسهم وعمد المغاربة بدويون وحضريون إلى إغلاق باب المرسى ومنعوا الدخول أو الخروج منه، والملاحظ أن سكان الدار البيضاء ومجاهدي القبائل تحملوا عبء قتال الفرنسيين دون انتظار تعليمات المخزن الذي كان يرى عدم جدوى المقاومة، كما يلاحظ عدم تدخل أبراج المدينة على قلتها وعتاقة مدافعها وعدم تحصينها، وبالرغم من توالي القصف وفتك القذائف بجماعات الفرسان المتوافدة، تمكن المغاربة من تضييق الخناق على القناصل ونظموا حصارا ضد القنصلية الفرنسية، واستمروا في إطلاق نيران بنادقهم من فوق سطوح منازلهم وصوامع المنازل ونوافذ الدور. واستمر القصف وساهم البحارة المحتلون للقنصلية بإطلاق

الرصاص في كل اتجاه، دون تمييز بين المقاتلين وبين الفارين من تساقط القنابل.

وقد اشتد القتال ليلة 5ـ6 غشت حيث هجم سكان الدار البيضاء وخاصة من الأحياء القريبة من البوارج كحي المسجد وقد هوجمت قنصليات إسبانيا والسويد وانجلترا وسقط في صفوف البحارة عدد من القتلى والجرحى خاصة من الفرنسيين والإسبانيين.

بعد دي شايلا وصلت سفينة حربية إسبانية الفارو دو بازان Alvaro de bazan وشرعت بدورها في القصف لبعض الوقت، وفي المساء وصلت بارجة فرنسية ثالثة وهي فورباني Forbin وعززت كاليلي ودي شايلا في تغطية المدينة بالقذائف، ثم أنزلت بدورها صباح يوم 6 غشت فرقة من بحارتها.

وفي يوم 6 غشت حاول المغاربة فيما يبدو احتلال المدينة وطرد الفرنسيين لكنهم سرعان ما تراجعوا بفعل نيران المدفعية البحرية ومدافع الميدان الموضوعة فوق القنصليات وكان الهجوم من الخطورة بحيث أقدم الفرنسيون على تحطيم منارة المسجد الكبير.

مع صباح 7 غشت بدأ الفرنسيون يشعرون بخطر داهم ويعيشون ساعات حرجة ولم ينقدهم إلا وصول الأسطول الفرنسي بقيادة الأميرال فيليبر Philibert أمام الدار البيضاء في الساعة 11 يوم الأربعاء 7 غشت وقد شرعت البوارج المرافقة للحملة في التمهيد لإنزال القوات بقنبلة المدينة وأطرافها مما أدى إلى مذابح في صفوف السكان الفارين. وكان عدد تلك القوات حوالي 3000 رجل بمعداتها وحوالي 300 من بغال وخيول بقيادة الجنرال درود، وبوصول الأسطول تجددت المجازر في المدينة وأنهت مدافع الأميرال ما بدأته مدفعية قائد كاليلي.

وهكذا عاشت الدار البيضاء ثلاثة أيام بلياليها غارقة في أعمال الذبح والتخريب وتحت وابل من القنابل التي نشرت الخوف والفزع والإرهاب وأجهزت على المحتضرين. وكان لهذا الإنزال آثار وخيمة وعواقب أثيمة وانعكست أثاره على جميع المستويات سواء على السكان أو الممتلكات أو على الناحية السياسية.

من حيث السكان نشير أنه أثناء قنبلة المدينة فر آلاف من سكان المدينة إلى السور الجديد قصد الاحتماء بالمحلة السلطانية بعد أن اتفق مولاي الأمين مع القنصل الفرنسي على أمنهم، فلما اجتمعوا صبت عليه القذائف المحرقة وحولتهم إلى ركام. وداخل المدينة قامت الفرقة الثانية بتقتيل جماعي للمغاربة مسلمين ويهود كما نظمت عمليات نهب وسلب للممتلكات وارتكبت كل ما استطاعت أن ترتكبه من أعمال الفساد والإجرام.

لقد خرب حي التناكر بأكمله واشتعلت أكواخه وحطمت منازله، وهو الحي الذي يسكنه غالبية سكان المدينة، وكذلك تعرضت الأسواق وأبواب المدينة للقنبلة والتخريب، ولم ينج إلا الحي الأوربي حيث كانت تقع مباني القنصليات، لقد تحولت المدينة إلى أرض مغطاة بالخرائب، وقد هربت آلاف العائلات وأصبحت آلاف أخرى بدون مأوى.

إن حجم التخريب أثار فزع السكان المغاربة والجاليات الأجنبية بالمدن الأخرى، وقد كانت له عواقب وخيمة على السكان وسبب هدرا ديموغرافيا هائلا بحيث عدد السكان الذي كان يبلغ 30 ألف نسمة لم يبق منهم في المدينة إلا عددا قليلا والباقي قتل أو شتت في البوادي (أكثر التقديرات تحدده في 6.000 نسمة حسبما جاء في رسالة محمد بن عبد الكبير الوزير الأكبر لمولاي عبد الحفيظ إلى عميد الهيأة الدبلوماسية)[20].

على المستوى السياسي كان احتلال الدار البيضاء سببا مباشرا لما حدث من تغيير على مستوى الحكم في المغرب فقد دفعت هذه الحادثة مولاي عبد الحفيظ أخ السلطان عبد العزيز وخليفته بمراكش إلى إعلان بيعته سلطانا بالمدينة، وعزل أخيه من الملك، كما وجد سكان فاس وعلمائها الذريعة التي اعتمدوا عليها لإعلان بيعتهم لمولاي عبد الحفيظ[21].

لم تنقطع هجومات المغاربة على معسكر الفرنسيين بحيث يوم 8 غشت كان هناك هجوم من طرف مجموعات من المجاهدين على معسكر الاحتلال

20. علال الخديمي، نفس المرجع، ص 228.

21. نفسه، ص. 236.

وكذلك تعرض المعسكر الفرنسي يوم 10 غشت إلى هجومات عنيفة وكانوا يهدفون إلى الاستيلاء على المعسكر لدرجة اضطر معها الجنرال درود طلب مزيد من الإمدادات ومن الذخيرة من باريز ، كما عاود المغاربة الهجوم يوم 18 غشت فتكبد الفرنسيون بعض القتلى وعددا من الجرحى.

لقد تخوف الفرنسيون من عملية مرابطة قبائل الشاوية حول الدار البيضاء وحصار القوات الفرنسية بها وهو حصار منع كل أنواع الإمدادات من الداخل وجعل المدينة تعيش على مايصلها من البحر.

لم تنقطع هجومات المغاربة على الجيش الفرنسي الذي تحطمت معنوياته وسئم من حياة الخنادق كما تكبد خسائر فادحة، مما اضطر قواده إلى طلب مضاعفة أعداده يوما بعد يوم وتزويده بأحدث الآلات الحربية بحيث وصل عدد الجيوش الفرنسية بعد 25 غشت إلى 5.000 جندي وكان يتوفر على كل ما يتوفر عليه جيش عصري من مصالح للنقل والهندسة والتموين وكان يؤطر هذا الجيش ضباط ذوو رتب عالية درسوا في كليات حربية ويقوده الفريق Drude.

لقد تأكد للفرنسيين بعد أسبوعين من القتال أن حساباتهم كانت خاطئة وأن الأمر يستلزم مزيدا من الحزم وتغييرا في التكتيك ويستدعي كذلك مزيدا من القوات الاحتياطية لمواجهة المغاربة وأن الوضعية ليست هي التي كانوا يعتقدونها إبان إرسال قوات الإنزال، كما تبين لهم أن الهدف الذي من أجله قنبلوا المدينة يظهر بعيد المنال. ولذلك اقترح الجنرال درود على فرنسا تغيير سياسية التدخل جذريا لعلهم يتمكنوا من الوصول إلى الهدف المنشود نستشف ذلك من خلال مراسلة لمكاتب جريدة الماتان بالبيضاء حيث قال: "... وإنه لمن الخطأ العظيم أن نستهين بقوة المغاربة، ونزعم أنهم لا يقوون على ملاقاتنا، وأن معركة واحدة تفصل بيننا وبينهم، إذ القوم ذوو بأس كبير، وعناد شديد وشجاعة فائقة، ولهم ذخائر وأسلحة من الطراز الرفيع.."[22].

22. نفسه، 246.

وأمام توالي فشل الجيش الفرنسي أما القوات المغربية أقدمت فرنسا على عزل الجنرال درود لتبرير فشلها في إخضاع الشاوية. ومع حلول العام الجديد 1908 تولى الجنرال دامادا قيادة جيش الاحتلال متبنيا خطة جديدة عساها تمكنه من الوصول إلى الغرض المنشود.

إذا كانت الأسباب التي أدت إلى احتلال مدينة وجدة هي نفسها الأسباب التي أدت إلى احتلال الدار البيضاء فإن هناك بعض الاختلاف في كيفية احتلال كلا المدينتين وطريقة استقبال المحتلين بهما نلخصها في عدد من المستويات:

- **على المستوى الزمني**

فاحتلال وجدة سبق احتلال الدار البيضاء، وبطبيعة الحال فجميع المدن المغربية بعد احتلال وجدة قد داخلها الشك في انتشار الاحتلال وبدأت بأخذ الحيطة والحذر ومنها مدينة الدار البيضاء وقبائل الشاوية عكس مدينة وجدة التي أخذت على حين غرة وبدون سابق إنذار. فقد بينت الأحداث أن الفرنسيين استغلوا مقتل موشان لاحتلال وجدة ولا شك أن مقتل 9 عمال في الدار البيضاء سيستغل للهجوم من البحر على الدار البيضاء والشاوية خاصة بعد رسو بارجة جاليلي في البحر، وهكذا فمدينة وجدة احتلت على حين غرة بينما الدار البيضاء كانت على أهبة الاستعداد، كما أن مدينة وجدة احتلت في ساعات بينما احتلال الدار البيضاء استلزم أياما واحتلال ضواحيها استلزم شهورا.

- **على المستوى الجغرافي**

تمثل وجدة مدينة حدودية، وكان التنقل بين وجدة ومغنية أو تلمسان لا يخضع لأي إجراءات إدارية بالإضافة إلى أن سهل أنكاد سهل فسيح وشبه فارغ من السكان نتيجة توالي الهجومات عليه، فلما تحركت الحملة الفرنسية من تلمسان ودخلت وجدة لم يثر ذلك أي شكل من أشكال الاعتراض على هذا الفعل، واعتبر الأمر عاديا خصوصا أن عامل المدينة السيد أحمد بن كروم استقبلهم استقبالا يليق بمقامهم عنده وقدم له غداء متنوع الأطباق ويشمل

خروفا مشويا، كل هذا وسط هدوء شامل وجو ربيعي ممتاز مما جعل أحد المرافقين للحملة يقول" لا يمكن أن أصدق أننا وسط حملة عسكرية" عكس الدار البيضاء التي يحدها البحر ورسو بارجة في مستوى بارجة كاليلي كان لا بد أن يثير الشكوك ويبعث على القلق خاصة وأن رسوها جاء بعد حادث 30 يوليوز الذي كهرب الأجواء، وجعل السكان في حالة قصوى من الاستنفار، كما أن 30 ألف من حيث السكان ومن قبائل الشاويا بالأخص ليست هي 5000 أو 6000 من سكان وجدة نصفهم من الجزائريين. بالإضافة إلى دخول الجيوش الفرنسية إلى وجدة عن طريق البر وعن طريق دولة هي الأخرى تحت سيطرتهم بحيث يمكنها أن تتراجع بسهولة أو طلب إمدادات أخرى سريعة في حالة الخطر، أما بالنسبة للدار البيضاء فنزول الجيوش من البحر ساعد سكانها على حصرهم بسواحله وداخل خنادقهم وجعلوهم "مثل الأسماك لا يستطيعون مغادرة شاطئ البحر"[23] وهذا من الأسباب التي جعلت عملية الاحتلال تدوم أياما بالنسبة للمدينة وحدها.

• **على المستوى الاجتماعي**

منذ احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 أصبحت هناك هجرات جماعية إلى وجدة بحيث أصبح نصف سكانها من الجزائريين، وكان بعضهم من المتجنسين الذين لهم عطف خاص إلى فرنسا وكان من مصلحتهم دخول فرنسا إلى مدينة وجدة لحماية تجارتهم وممتلكاتهم، أما باقي السكان فكان قد أرهقهم الجوع والحصار وتوالي الهجمات عليهم من جراء ثورات بوحمارة وبوعمامة، وسئموا من حياة السيبة وانعدام الأمن، وظنوا أن دخول الفرنسيين ربما ينقذهم مما هم فيه، ولذلك لم يستغرق احتلال المدينة أي وقت ولا أي مجهود وكان دخولا عاديا إذ سرعان ما اخترقت الجنود المدينة واتجهت إلى القصبة حيث منزل العامل وانصرفت باقي الجنود ورابطت خلف أسوار المدينة ولم يسجل على إثر ذلك أي حادث على الأقل خلال الأيام الأولى من الاحتلال.

---

23. نفسه 253.

علال الخديمي، مرجع سابق، ص. 258. هامش: 55. من 276. ها 20. ص. 277.

أما الدار البيضاء فقد استلزم احتلالها ثلاثة أيام بلياليها وأهرقت دماء وحطمت أحياء بكاملها واهذرت أرواح عديدة وبقي جنود الحملة الفرنسية ملتصقين بخنادقهم بالبحر ولم يتمكنوا من الابتعاد عن البحر إلا بعد شهور من نزول الحملة.

• **على المستوى السياسي**

إن كان احتلال وجدة قد اتخذ "أمرها هزءا ولعبا وتهكما وسخرية، ولم يجد أهلها لا ناصرا ولا معينا" كما ذكر ذلك المولى عبد الحفيظ في رسالته إلى القائد الأخصاصي[24]، فإن احتلال الدار البيضاء يعتبر السبب المباشر للتغيير في الحكم وإعلان بيعة مولاي عبد الحفيظ بمراكش بعد 11 يوما من قنبلة المدينة.

• **على المستوى العسكري**

يبدو أن دخول وجدة هو الذي أعطى فرنسا حسابات خاطئة وأيقنت أنه يكفي بضع قوات لاحتلال مدينة مغربية وظنت أن حملة قوامها 3000 رجل كافية لاحتلال الدار البيضاء والشاوية بحيث إذا رجعنا إلى مصادرنا الوطنية والتي كان أصحابها شاهدي عيان، فإننا نجد أن عدد جيش الحملة على وجدة هو 5.000 جندي إضافة إلى 2.000 من الخيالة، وهو ما مجموعه 7.000 عسكري هاجمت كلها مدينة وجدة[25] معناه أن عدد جنود الحملة الفرنسية التي دخلت وجدة كان أكثر من عدد سكان المدينة الذين كان عددهم 5.000 ساكن أو 6.000 على أكثر تقدير. أما عدد جيش الحملة على البيضاء كان هو 3000 جندي ومجموع عدد السكان هو 30 ألف ، معناه أن عدد الجيوش كان يساوي عشر عدد السكان، في بداية الحملة، ولم يصل عدد الجيوش الفرنسية إلى 5000 إلا بعد أن مرت 20 يوما عن بداية الحملة.

24. نفسه، ص 470.

25. هوبل، مرجع سابق ص. 37.

إلا أننا نجد أن فرنسا قد استفادت من سوء التجربة في تقدير عدد الجيوش اللازمة للحملة ولذلك نجدها في احتلال جبال بني يزناسن قد هيأت حملة كبيرة قوامها 12.000 جندي يؤطرها 400 ضابط مما مكنها من بسط سيطرتها على المنطقة في دجنبر 1907.

وفي الأخير أشير إلى أن بعض الزجالين قد عقدوا مقارنة بين احتلال وجدة واحتلال البيضاء في قصائدهم حيث يندبون حظ مدينة وجدة ويستنهظون همم قبائلها ويشيدون بقبائل الشاوية، ومن ذلك مثلا:

زجلية الشاويا نظم بناني الدرر البهية في مدح رجال الشاويا

لو ريتي كيف كان لحرامي يفرح — على وجدا منين حازوها لكشوط
واش ما عار عليكم يا كنوز لفقير — مشات وجدا فحماكم حازها الكافر...
واجب لبكا على دخولك يا وجدا — بكي يا درة لنها بدموع الدم
دخولك بلا محارب لامت لعدا — دخلا فلحين باردا دون صوارم...
جاوبتني بلسان الحال عند لمقال — قالت العذرا لو جيب بصوت عالي
تاه بنو آدم القماش والمال — ولا فعل باش ما أمرنا ربنا العالي
فاين خيولي وارجالي كهول وأطفال — واين براجي وين مدافعي ومالي
واين السكان فقربي وكل جوار — ما نظرت فلورا من جابت يعارا
واين بني يزناسن ياك غير لحرر — واين بني كيل اعربان والصحاري

ثم يشيد بأهل الشاويا قائلا:

يا هل الشاويا صولو بعز وسرار[26] — بالجهاد فلجحود خنازر النصارى
شف لفضال الشاويا هلو النجادا — اشحال هذا من اشهر مقابلين للروم
شف لفضال الشاويا فالزيادا — عائهم بفضل رب الورى القيوم
شف لفضال الشاويا فخرق عادا — كل هزبر منهم يوم اللطام محزوم

---

26. المختار السوسي، إيليغ، 20/189.

ثم يخاطب أهل وجدة قائلا:

نهضـــوا يـــا أهل الشرق تغــو فلعدو قومــوا الله كلكــم فســاق الجد....
قويــو إيمانكــم للحــرب أزيــدو عرفوا من مات منكم مات مشــهد
اتشـــبهوا بهم يا ناس الوفا ولسررا فاجهــا تفــوزوا بالعــزم والتيــارا
ســـهلوا فلكلاب هل الشقا ولشرار يــلا انتم بغيتــوا تبقــاو فلعمارا...
يا الشــاويا صولي على جميع لقطار يــا الشــاويا حلــت لبشــارا
ياهل الشــاويا صولو بعز وسرار...